الفكر السياسي الأمريكي والنظام الدولي الجديد

الاستاذ الدكتور

ناظم عبد الواحد الجاسور(*)

المقدمة

تنفرد الولايات المتحدة الأمريكية عن غيرها من الدول العظمى الاخرى التي تنافسها على زعامة العالم ،باعتماد اداراتها الرئاسية، وصناع قرارها السياسي والعسكري والامني، على مراكز الفكر (Thing Tanks) بدرجة لايمكن مقارنتها مع الروس او الفرنسيين وحتى مع الصين. هذه المراكز التي ازداد عددها، الى درجة ان كل مركز اختص بمجال معين، حيث الافكار، وحسب رأي اوغست كونت، هي التي تحكم العالم. فمع التقدم التكنولوجي، الذي صاحبه سباق تسلح محموم، وتنافس اوروبي – امريكي على نطاق الشركات المتعددة الجنسيات، مقابل بروز التهديدات والتحديات التي فرضتها عملية التطور الحضاري بكل ابعادها، والمتغيرات الجذرية في بنية العلاقات الدولية، وما استجد من صراعت وازمات ، وتنافس على المصادر والثروات الطبيعية، اقتضت بروز مثل هذه المراكز التي تسمح بتحليل المشاكل المعقدة، وتعطي الحلول المبنية على معطيات الواقع الوطني والدولي وفقا لرؤيتها الخاصة، ومرجعيتها والاهداف التي تسعى الى تحقيقها، سواء أكانت دينية، سياسية، عسكرية، او اقتصادية.

واذا كان لكل دولة، وخصوصا الدول الكبرى "خزانات الافكار"" تسمتد منها الحلول للمشاكل الصعبة، فان هذه الظاهرة ازدهرت بشكل كبير في الولايات المتحدة الأمريكية ولا سيما بعد الازمات الكبرى منذ مطلع القرن العشرين، واضحت مؤثرة جدا في عملية صنع القرار السياسي الخارجي، وكثيرا ما قادت، بافكارها وتوصياتها الخطرة، الادارات الأمريكية الى اتخاذ قرار الحرب، والتدخل لاسقاط الانظمة السياسية

(*) عميد كلية العلوم السياسية–الجامعة المستنصرية.

المعادية للسياسة الأمريكية، وخصوصا المجموعة التي اطلق عليها (المحافظون الجدد Neo-concervateurs) التي اعدت "مشروع القرن الامريكي الجديد PNAC".

يتسآل روبين بوشيه، ومارتين رويو في كتابهما: مراكز الفكر، كيف نغير العالم؟ ويعطون الاجابة في نفس الوقت من خلال القول: اذن هناك الطرق الصحيحة مثل الاستيلاء على السلطة او الثراء المفرط او اتباع سياق الانتخاب المتعب . وهناك الطرق المختصرة مثل الارهاب او ...مراكز الفكر". وان يصنف ستيف ووترز الصحافي المعروف من الغارديان اللندنية، مركز الفكر وواضعي العبوات الناسفة في نفس فئة "الارواح الخطرة" يشير الى السمعة السيئة لهؤلاء في السنوات الاخيرة، والذين لعبوا دورا مؤثرا وفعالا في تسويق الحجج والمبررات التي اقنعت ادارة بوش الابن الى الاندفاع في مغامرات خارجية غير محسوبة النتائج، كالحرب في افغانستان، وغزو العراق واحتلاله.

ويوجد في الولايات المتحدة ما لا يقل عن منظمة ومركز تجهد في اغناء نقاش الافكار على المسرح السياسي الامريكي، ومن بينها مؤسسة المبادرة الأمريكية (A.E.I) تاسست عام ، التي تعد من اكثر مراكز الفكر تاثيرا في الولايات المتحدة الأمريكية ومن ابرز قادتها ريتشارد بيرل ودوغلاس فيث، ومؤسسة هودسون- (Hudson.Ist) ومركز السياسة الامنية (Center for Security Policy) لمرتبطة بقوة بصناعة الاسلحة والمؤسسة الوطنية للسياسة العامة (National Inst for Public Policy)، ومؤسسة هيريتاج- (Heritage Foundation)، التي كانت تقاريرها تحظى برضى رونالد ريغان وطبقها بحذافيرها خلال رئاسته وان أي ملف لا يقدم الى مجلس الشيوخ والنواب الا وعليه ملاحظات مؤسسة هيرتاج وموجه الى كافة الاعضاء. وهناك ايضا من اشهر مركز الفكر في الولايات المتحدة هو مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية (CSIS)، الذي تأسس عام ، ومن ابرز مفكريه هنري كيسنجر وزبيغنو برجنسكي.

واذا كان النظام الدولي يعبر عن شكل من اشكال تنظيم العلاقات الدولية وان الاسس التي يعتمدها هذا النظام الدولي سوف تكون ذات طبيعة فلسفية، فانه يمكن القول بان هذا النظام سوف يكون ذا طبيعة ايديولوجية، التي تعكس مشروعا ارادياً لاقامة علاقات دولية اخرى كان قد تم ادراكها عقليا قبل ان تكون قد تحققت على

المسرح الدولي. وعليه، فان مستشار الامن القومي الامريكي السابق برجينسكي قد أكد بان "النظام الدولي الجديد كان مصصم امريكيا ليعكس التجربة المحلية الأمريكية. حيث تقف الطبيعة التعددية لكل من المجتمع الامريكي ونظامه السياسي"، في نفس الوقت فان هذا النظام هو "رسالة ايديولوجية" تفترضها الزعامة الأمريكية على العالم.

واذا كانت الافكار التي طرحتها وثيقة عام ، التي وضعها موظفان في وزارة الدفاع، نائب امين السر للسياسة الـ فاعية بول ولفوفيتز ولويس ليبي، وركزت على ضرورة اختراع النظام العالمي ولم يعد ليساسة الردع النووي أي مكان في العالم بعد نهاية الحرب الباردة، واستبدالها باستراتيجية جديدة لمواجهة أي منافس دولي دعه، مجرد تصورات افضت بها مخيلة المحافظين الجدد، حتى تأتي احداث الحادي عشر من سبتمبر– ايلول ، لتجد هذه الافكار طريقها ان تترجم فعليا في محيط العلاقات الدولية وبالتحديد في منطقة الشرق الاوسط التي تحولت الى ساحة مكشوفة لتنفيذ كل حلقة من حلقات الاسراتيجية الأمريكية الجديدة، حيث "القيادة الأمريكية للعالم، التي ترتكز على مبدأين: زعامة امريكا هي خير للولايات المتحدة ولبقية العالم، وزعامة كهذه تستدعي القدرة العسكرية والقوة الدبلوماسية واعتماد مبادىء اخلاقية".

واذا كان نشاط مراكز الفكر منصبا على سياسات الامن والدفاع، والتعامل مع الازمات والصراعات الدولية والاقليمية، فانه انشغل ايضا بقدر كبير بشؤون السياسة الخارجية. ففي هذا المجال يعد المحافظون الجدد اكثر ميلا الى تبني موقف متشكك ومرتاب نسبيا في التعامل مع الدول الاجنبية. أي ان لديهم نظرة عدائية للعالـ. قائمة على اعتبار الخصم معتديا، نظرا لانهم يعتبرون الصراع امرا حتميا، الامر الذي يترتب عليه في تصورهم تعزيز القوة العسكرية للولايات المتحدة للحفاظ على السلام العالمي انطلاقا من مقولة: "ان افضل السبل للمحافظة على السلام يتمثل في الاستعداد للحرب". ونظرا لتلك النظرة الشكلية التي تسيطر على المحافظين فمن المتوقع ان تكون علاقاتهم مع الدول الاخرى قائمة على مفهوم القوة مدعومة بالتحالفات الدفاعية مع "الاصدقاء" ضد الاعداء المحتملين، كما انهم يميلون الى برنامج المساعدات الخارجية الى "الدول الحليفة"، مع التركيز على جانب المساعدات العسكرية، التي يهدف منها الى ربط جيوش وتسلح الدول الاخرى بسيطرة امنية دقيقة

وتشغيل ماكنة صناعة الاسلحة الأمريكية وشركاتها العملاقة والممولة لسياسات الامن والدفاع في حالة وجود اشكال تشريعي يعيق التمويل الخارجية.

أن خلق "بيئة عدائية عالمية جديدة "شكلت القاسم المشترك لكل مراكز الفكر الأمريكية المتنفذة في سلطة القرار السياسي. واذا كان ما طرحه فوكوياما في "نهاية التاريخ" وما عززه صموئيل هنتغنتون في "صدام الحضارات واعادة صياغة النظام العالمي"، قد مثل التنظير الفلسفي للنظام العالمي الجديد من حيث " ان المصدر الجوهري للصراعات في العالم الجديد لن يكون بالدرجة الاولى ايديولوجيا اقتصاديا... بل سيكون ثقافيا... ستكون خطوط الصراع بين الحضارات هي خطوط معارك المستقبل"، وخصوصا بين الغرب والاسلام، فان ما دعا اليه هنري كيسنجر بقوله "ان ما تحتاج اليه امريكا هو تهديد واضح معروف وايديولوجية معادية، هاتان الخاصيتان من خصائص الحرب الباردة لم تعودا موجودتين، الامر الذي يتطلب (خلقهما) وبالقوة نفسها".

واذا كان برنارد لويس المفكر الامريكي المشهور بافكاره وطروحاته المناهضة للاسلام، قد دعا اوروبا الى ان تعد العدة لان طبول الاسلام قد دقت، فان جوديث ميلر الصحفية البارزة في نيويورك تايمز قد طالبت هي الاخرى بوضع استراتيجية غربية لمواجهة "تحدي الاسلام المتشدد"" والعمل على عدم تشجيع الديمقراطية والتعددية في الشرق الاوسط، لانها تؤدي الى وصول نظم اسلامية هي في حقيقتها تضمر العداء للديمقراطية وتعرض للخطر المبادئ الواردة في الاعلان العالمي لحقوق الانسان والمقننة في العهد الدولي للحقوق المدنية والسياسية".

وفي الواقع، لقد مارس المحافظون الجدد تأثيرا فكريا وسياسيا في كل اتجاهات السياسة الخارجية الأمريكية ورسم خططها المستقبلية، وبخاصة في فترة ما بعد الحرب الباردة عند انتخاب جورج بوش الاب، حيث سيادة وجهة نظر المدرسة الواقعية في العلاقات الدولية التي ترى ان القوة هي العنصر الاساس في المجتمع الدولي، وان جميع الدول تسعى دائما الى زيادة قوتها وفرض نفوذها ومصالحها على الاخرين ، بغض النظر عن الطرق المتبعة من اجل الوصول الى الهدف.

وقد أوجز الاستاذ ابراهيم المهنا في دراسته الفكر المحافظ الأمريكي والصراع ي الاتجاهات العامة التي وضعها المحافظون الجدد في ما يتعلق بالنظام الدولي وسياسة امريكا الخارجية في النقاط التالية:

. النظر الى النظام الدولي والصراعات والمشاكل المالية المختلفة من منطلق التصادم بين قوى الخير والشر، وهو ما افرزته اطروحات صراع الحضارات وكذل، الافكار السياسية التي انطلق منها جورج بوش الابن في مكافحة ما يسمى بـ"الارهاب" وتصنيف الدول على اساس ذلك.
. الحرب والاحتواء، هما الاساس الذي تنطلق منهما الولايات المتحدة الأمريكية في محاربة اعدائها.
. القوة العسكرية هي القوة الاساسية والوحيدة في هذا الصراع.
. لا بد من استخدام القوة الـ سكرية من اجل حماية المصالح الأمريكية، ومن جل اسقاط أي نظام او حركة معادية.
. تشجيع الانظمة على انتهاج الطرق المؤدية الى التحالف مع الولايات المتحدة، ومساندة الحركات التي تتبنى وجهة نظر السياسة الأمريكية.
. يجب محاربة الافكار والسياسات التي تدعو الى السلم العالمي او التعاون الدولي، وهو ما اتضح من السياسة الأمريكية التي عملت على تهميش الامم المتحدة ودورها العالمي، وعدم الالتزام بكل المواثيق الدولية في تسوية الصراعات والازمات الاقليمية.
. يجب عدم الثقة بشكل تام بحلفاء الولايات المتحدة الأمريكية الغربين، وبخاصة (الاوروبيون) الذي لهم افكارهم وطروحاتهم وسياساتهم الخاصة بصدد العديد من القضايا الدولية التي تتناقض مع الرؤية الأمريكية، وهو ما حصل بعد احداث سبتمبر حول مكافحة الارهاب وفي مجلس الامن حول قرار شن الحرب على العراق.

واضافة الى ما طرحه هنتنغتون من مقولات وافكار عن صراع الحضارات فانه عاد مرة اخرى ليعلن ومن خلال صفحات مجلة نيوزويك الاسبوعية في يناير ، تحت عنوان: حروب المسلمين بدلا من الحرب الباردة، منطلقا من ان العالم يمثل ساحة قتال واسعة، ومتسائلاعن اسبابها وجذورها، مشددا على احتمالية نشوب

صراع بين الحضارات هو قائم الان، وذلك لان السياسات العالمية المعاصرة ، حسب رأيه، هي "عصر حروب المسلمين"، ليصل الى استنتاجه بان حروب المسلمين قد حلت محل الحرب الباردة ، بشكل رئيسي اشكال الصراع الدولي، وتشمل على حروب الارهاب والعصابات والحروب المدنية والصراعات المحلية بين الدول". الا ان فريد هاليدي قد اشار في كتابه" ساعتان هزتا العالم (–) "بان الولايات المتحدة شجعت خلال الحرب الباردة الحركات الاسلامية المقاومة للسوفييت والشيوعية ، ودعمها ماديا وعسكريا، والعمل على اشاعة تلك الانماط من الارهاب ذي الاستقلال الذاتي الذي تكلل بحركة طالبان وتنظيم القاعدة. ويضيف هاليدي بان احداث /ايلول لن تفسر صدامات ثقافية او بتقليب النصوص المقدسة بحثا عن مقتبسات تؤيد العنف والمقاومة او تعارضهما) "ليس الاسلام كما يزعم هنتنغتون "حدود دموية"، وحدود الهندوسية والصهيونية والقومية العلمانية ليست افضل. كما ان الاسلام ليس تهديدا للغرب. باي معنى لا عسكريا ولا اقتصاديا.

وفي كتابه "قضايا في الفكر المعاصر" يتسآل الاستاذ محمد عابد الجابري: لماذا توارت فكرة نهاية التاريخ بسرعة واختفت ولم تعد تثير الاهتمام بعد اعلان هنتنغتون عن اطروحته صدام الحضارات؟ هل يرجع الى كون مركز هنتنغتون في مجال الدراسات الاستراتيجية والعلاقة مع صناع القرار الأمريكي اقوى بكثير من مركز ذلك الأمريكي، الياباني الاصل من مسرح الاهتمام؟ قد يكون الوزن الشخصي دورا ولكن الدور الحقيقي حسب ما يراه الجابري هو للوظيفة التي تؤديها الفكرة. ان فكر. نهاية التاريخ تتحدث عن الماضي، وبالتالي تبعث على الاطمئنان على مستقبل امريكا، اذ هي تؤكد على الانتصار النهائي الليبرالي، اما اطروحة صدام الحضارات فهي تتحدث عن المستقبل وتنذر بخطر المواجهة والحرب وتدعو الى اخذ الحيطة والاستعداد للدفاع عن النموذج الحضاري الأمريكي وعن المصالح التي تقوم عليها.

في الواقع، فان النظرة التي صاغها اعمدة الفكر السياسي الأمريكي ازاء مشكلة "الارهاب" قائمة على عبارة" من لم يكن معنا فهو ضدنا "واجهت العديد من الانتقادات وخصوصا من قبل حلفاء الولايات المتحدة في الاوروبية للاطلسي. اذ كانت لباريس وجهة نظرها الخاصة والمتميزة، حيث اكدت على ضرورة عدم اختزال مشاكل العالم بمكافحة الارهاب وحدها، وعدم اللجوء الى الوسائل العسكرية وحدها من اجل

تسوية هذه المشاكل العالقة التي تحتاج قبل كل شيء الى الحوار السياسي والدبلوماسي وتعاون المجتمع الدولي، بعيدا عن الانفرادية والتعسف في استخدام القوة غير المبررة. كما اكدت باريس وبقية العواصم الاوروبية في الاتحاد الاوروبي على عدم الانسياق وراء المقاربة الاحادية الجانب لحل مشاكل العالم، ودعت الى مقاربة متعددة الجوانب (تعدد الاقطاب) وعدم استسلام الادارة الامريكية لاغراء القوة الوحيدة.